لبنان كما تحلم به رغد

لم تكد رغد تصل إلى المنزل، حتى ارتمت على أول مقعد تستعرض أحداث اليوم. هي طالبة في الصف الثالث الثانوي. خلال النهار، لم تسمع إلّا الشّكوى من أوضاع البلاد: انهيار اقتصادي، غلاء، فقر، إضرابات، قطع طرق، حرق دواليب، وباء رهيب، انفجار هائل في مرفأ بيروت، يودي بحياة المئات، ويصيب الآلاف ويدمر أحياء من بيروت. وتوضع العقبات حتى لا يكشف القضاء أسبابه ومسببيه.

ويشرد بها الخيال، فتتذكر أسطورة بندورا، رسولة آلهة الأولمب التي كلفتها بنقل صندوق، في داخله جميع الآلام من جوع ومرض وكوارث، وأوصتها أن لا تفتحه. إلّا أنّ بندورا عصت الأوامر وفتحت الصندوق، فانتشرت شروره ومصائبه على الأرض. تُرى، فكرت رغد، هل تحوّلت الأسطورة إلى واقع وفتحت بندورا صندوقها في سماء لبنان، فانقلب صفاؤه كدراً؟

والأدهى ما قاله أستاذ التاريخ من أن مؤسسات الدولة تتفكك، مما يهدّد بزوالها ورجوع اللبنانيين إلى حالة ما قبل نشوئها. وغرقت رغد في تصوراتها حول ما سيصير إليه الوضع بعد زوال الدولة. فكرت أولاً بالشيوعية وما تنبأ به مؤسسها ماركس من أن مرحلتها الأخيرة هي انحلال الدولة. ولكنها سخرت من شطط خيالها. طبعاً ليس ذلك المجتمع الطوباوي هو ما ينتظر اللبنانيين، بل مجتمع التوحش، كما تخيله الفيلسوف الإنكليزي هوبز على صورة حيوان بحري شديد البطش، متعدد الرؤوس والأطراف، كلّما قطع عضو منه نبت له آخر أكثر قوة وأشد فتكاً.

ارتعدت رغد من تلك الصورة الرهيبة، وحاولت التّخلص منها باستعراض شاشات التلفاز. وخاب فألها إذ لم تجد على الشاشات إلّا ما يزيدها يأساً وخيبة. لم تسمع إلّا كلاماً مُعاداً ممجوجاً يردده أقطاب المنظومة التي حكمت لبنان وأوصلته، بفسادها وجشعها والمحاصصة، إلى الحضيض. كلّ يدَّعي البراءة والطهارة، وينسب إلى الآخرين الخطايا والمفاسد.

شعرت رغد بالغثيان، ولم تجد فيما سمعته إلّا أنّ وسائل إعلام المنظومة الحاكمة قد تحولت إلى ما يشبه برج بابل، يتعالى فيه الصراخ وتختلط الأصوات فلا يفهم الواحد ما يقوله الآخر. وازدادت قناعتها بصوابية الشعار الذي رفعه الثائرون: "كلن يعني كلن"، فكلّ أفراد المنظومة الحاكمة صادقون فيما ينسبونه إلى خصومهم، كاذبون فيما يدّعون لأنفسهم من عِفَّة وفضائل.

أقفلت التلفاز وأوت إلى الفراش علّها تتخلص من قلقها والوساوس. وما إن خضعت لسلطان النوم حتى وجدت نفسها على مقعد وسط روضة. ورأت أمامها، منتصباً في الهواء لا تلمس رجلاه الأرض، شبحَ شيخٍ طويل القامة، جميل الوجه، يغطّي شعره الأبيض كتفيه وصدره، يرتدي جلباباً فضفاضاً وتلمع عيناه كجمرتين. تملّكها الخوف، ومدّت يديها لتبعد عنها الشبح. لم تلمس يداها أي جسم، فامتلأت رعباً واختنقت صرخةٌ في حلقها.

علت الابتسامة ثغر الشيخ، وخاطبها بصوت عذب:

– إهدئي أنا لا أريد لك إلّا الخير.

– ولكن من أنت؟ ما شأنك معي؟

– لا أشكّ أنّك سمعت ببلاد تدعى عبقر، ألا تُسَمّون النابغين منكم بالعباقرة؟ أنتم في ذلك محقّون. فكل أعمال أو أفكار عظيمة مصدرها أفراد من عبقر. أنا من تلك البلاد، ونحن سكانها أجسام نورانية، لأنّ العليّ القدير الذي خلق أباكم آدم من طين خلق أبانا من نار. و"الطين لا يسمو سمو النار".

– إذن أنت جِنّي من نسل إبليس، ذلك الحاقد على أبناء آدم، ومصدر كل الشرور والآثام؟!

– هَوّني عليك فنحن الشياطين، معاشر الجن، منّا الصالحون، ومنّا الفاسدون، وإن كنّا كلّنا موكلين بالبشر، نوحي إليهم أعمالاً وأفكاراً وأقوالاً خارقة تجعلهم متفوقين، أو كما تسمونهم "عباقرة" تتراوح عبقريتهم بين الخير العميم والشر المستطير. فكّري بشعرائكم: ألا تقولون أنّ لكلّ

شاعر شيطاناً؟ أنتم محقون، ولكنّ شياطين بعض الشعراء صالحون يوحون لهم الأفكار البنّاءة والعواطف السامية والحكم، والبعض الآخر شياطينهم فاسدون لا يُنطِقونهم إلّا بالسوء، والرّذائل.

– وأنت من أيّ صنف؟ وما شأنك معي؟

– أنا عبقري صالح. عمري البالغ آلاف السنين – لأنّنا معاشر الجن لا نموت إلّا يوم الحشر– أمضيته في الإيحاء لنخبة من البشر أفكاراً ونظريات لبناء دولة فاضلة يسودها العدل والسعادة. تذكري أفلاطون ومدينته الفاضلة التي يحكمها الفلاسفة، ويُسند إلى كل مواطن فيها، بعد تدريبه وتأهيله، ما يتلاءم مع قدراته ومواهبه. تلك الأفكار من إيحائنا. أمّا ما أريده منك، فإنّني أعرف ما يعانيه وطنك من أزمات تكاد تلحقه بالكثير من الأمم التي بادت وزالت، وما تحلمين به من مستقبل زاهر له. لذلك جئت للتداول معك عن أفضل السبل لتحقيق ما تتمنين.

تذكّرت رغد حكايات جدتها عن الجن، وكيف أنّ منهم الماكرين الشريرين، ومنهم المؤمنون الخيرون، وأن على المرء عندما يعترضه جني أن يذكر اسم الله ويقرأ "سورة قل أعوذ برب الناس"، فإذا لم يختف الجني يكن من المؤمنين. أمّا إذا كان من الصّنف الشرير فيخنس على الفور. فراحت تردد البسملة وسورة الناس. ولمّا بقي الشبح منتصباً أمامها، بل ازداد بريقاً، أيقنت أنه صالح، فاطمأنت إليه وخاطبته:

– إنّ ما يؤلمني انقسام اللبنانيين طوائف وأحزاباً متناحرة. "كلّ حزب بما لديهم فرحون"، ويدفعهم الحقد على خصومهم إلى الاستعانة بالقوى الخارجية التي تجد الفرصة لإذكاء نار الفرقة بيننا، خدمة لمصالحها في السيطرة وبسط النفوذ. وما يزيد الأمر سوءاً أنّ المنظومة الحاكمة، استغلت انقسامنا، فعاثت في الأرض فساداً، ونهبت ثروات الوطن، وهي في مأمن من الحساب، لأنّ كلاً منها تحّول إلى "خط أحمر" لا يجوز المسّ به، لادعائه تمثيل طائفته والدفاع عنها. لذلك فإن أغلى أماني، أن أرى الشعب اللبناني، بكل فئاته وطوائفه، موحّداً ومتعاوناً لإقامة الحكم الرشيد، واختيار حكام صالحين، يرعون مصالحه. فكيف السبيل إلى ذلك؟

– أصبتِ، إنّ أسوأ ما ابْتُليتم به هو الفرقة والصراعات العقيمة التي قسَّمتكم فئات متناحرة، يستغلّها الطامعون لتحويل بلدكم إلى ميدان قتال. فكنتم بذلك كمن يخربون بيوتهم بأيديهم، وأصبحت معارككم حروباً للآخرين يخوضونها بكم وعلى أرضكم لحسابهم. صحيح أنّ التنوع سنة الحياة، والناس "متشابهون مهما اختلفوا، مختلفون مهما تشابهوا"، ولكنّ الحكمة تقضي بتحويل التّمايز بين النّاس إلى حوافز للتنافس في اختيار أفضل السبل إلى التقدم والحياة الحرة السعيدة. بذلك يصبح الاختلاف نعمة للناس، تغني تجاربهم، وتحقّق التكامل بينهم.

– ولكنّنا ندين بدينين مختلفين، وكل فريق يتعصَّب لدينه، وينسب الكفر والمُروق إلى أتباع الدين الآخر. فكيف السبيل إلى الوحدة بين أناس فرَّقَتهم الأديان؟

– حسناً فعلتِ بطرح إشكالية تعدد الأديان وعلاقتها بالوحدة الوطنية. لقد شهد تاريخكم معارك اختلطت فيها المشاعر الوطنية والدينية والطبقية والرغبة في الزعامة. لكن الدافع إليها لم يكن الاختلاف في الدين بل الجهل بتعاليمه ومقاصده، والتعصب الذي يعمي البصر والبصيرة. من يتأمل تعاليم الدينين اللذين يدين بهما اللبنانيون يجد أنهما متشابهان في المقاصد والأهداف، وإن اختلفا في طقوس العبادة ومراسمها. فلا فرق في الجوهر بين الدعوة إلى التسامح في الانجيل ودفع السيئة بالحسنة في القرآن. وهل المحبة المسيحية غير المحبة التي يدعو إليها نبيُّ الإسلام في الحديث الشريف "الخلق كلّهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله"؟ فاللبنانيون، سواء آمنوا بالقرآن أو بالانجيل أو بالعقل إماماً هادياً، على حدّ قول حكيم المعرة "كذب الظن لا إمام سوى العقل" لا سبيل أمامهم إلّا التعاون، فالعبرة بالأهداف والمقاصد لا بالطقوس والمظاهر. ثمَّ إنّ الدين لله والوطن للجميع، ولكل منهما ميدانه الخاص.

– حسناً، ولكننا في منطقة تتقاذفها صراعات وتيارات سياسية ومحاور يسعى كل منها إلى ضم لبنان إليه، مما انعكس انقساماً حاداً يهدد وحدته وأمنه، فكيف نتصرف وسط تلك الصراعات؟

– سؤالك يتضمن الجواب عليه، فما دام الانحياز إلى المحاور سبباً للإنقسام والتشرذم، فمن الطبيعي أن تكونوا أصدقاء الجميع، تباركون ما يتفقون عليه، وتقفون على الحياد في نزاعاتهم، وتبيّنون لهم أن لا مصلحة لكم أو لهم في انضمام بلد صغير تمزقه الخلافات إليهم، لأنه سيصبح عالة عليهم، ومصدر ضعف بدل أن يكون عامل قوة.

– كلّ ما تقوله حسن. ولكن أي صورة تقترح لبناء لبنان المستقبل؟

–هنا بيت القصيد. إنّ أهم ما يحتاجه بلدكم هو التنمية المستدامة الشاملة للبنى المادية التحتية كما للبنى العقلية والروحية الفوقية، أو للبشر والحجر كما اعتدتم تسميتها. فالتنمية لا تنجح ما لم تكن متكاملة في جميع القطاعات والمناطق، بحيث لا يطغى قطاع على آخر، ولا تتقدم منطقة على سائر المناطق الأخرى. إنّ أوّل ما تحتاجون إليه تأمين الكهرباء، فلا راحة ولا عصرنة ولا نمو دون طاقة كهربائية دائمة، ومن الأفضل استجرارها من مصادر متجددة، غير ملوثة للبيئة، كالطاقة الشمسية والأنهار والبحر والرياح. ومن المناسب أن تفكروا جدّياً في ولوج عصر الطاقة النووية للأغراض السلمية. وتذكروا أنّ هذا العصر هو عصر الاتصالات السريعة بالوسائل الإلكترونية التي حولت كوكب الأرض إلى ما يشبه القرية الكونية: شقّوا الطرقات السريعة، وأمّنوا صيانتها وإنارتها للحد من الازدحام وحوادث السير. مُدّوا سكك الحديد لتأمين التواصل بين المناطق، ونقل الركاب والبضائع بالقطارات الحديثة السريعة. وفكّروا باعتماد النقل البحري بين المدن والقرى الساحلية. جاروا العصر بتحديث مطاراتكم وطائراتكم المدنية لاستيعاب حركة المسافرين والقادمين المتزايدة، ولا يفوتَنَّكم السباق لتسريع الاتصالات الهاتفية، والحصول على المعلومات بواسطة الانترنيت وابتكارات الالكترون المذهلة والذكاء الاصطناعي. ثم إنّ من الاختلالات البالغة التي أضرَّت باقتصادكم الاعتماد على قطاع الخدمات من تجارة وسياحة ومصارف، وإهمال قطاعي الزراعة والصناعة. ومع التأكيد على أهمية إنماء القطاع الخدماتي، وتوسيع نطاقه إلى المناطق الريفية، إلّا أنّه لا بدَّ من إيلاء الزراعة والصناعة اهتماماً مضاعفاً لامتصاص البطالة وتأمين العيش الكريم لسكان الريف، فلا

يضطرون للنّزوح إلى المدن حيث يتكدّسون في أحزمة الفقر، أو للهجرة خارج الوطن. هذا فضلاً عن توفير السلع للاستهلاك المحلّي فلا يبقى الحصول عليها، باستيرادها من الخارج، رهناً بتقلّبات الأحداث والأوضاع العالمية. وكم أصاب أديبكم جبران عندما حذّركم "ويلٌ لأمّة تأكل ممّا لا تزرع وتلبس ممّا لا تنسج". أولوا الصحة اهتمامكم، واحرصوا على نظافة البيئة ومعالجة النفايات ومجاري الصرف الصحي، وتجنّبوا كل ما يشوه الشواطئ، ويلوّث الهواء ومياه الأنهار والبحر والينابيع.

- شكراً لكن، بماذا تنصح لبناء الإنسان؟

- إنّ لكم دوراً رائداً في ترقية العقول ونشر الثقافة في أصقاع العالم القديم. فمن شواطئكم انطلق الرّواد الأوائل ينشرون الأبجدية. وعاصمتكم بيروت احتضنت أهمّ مدرسة للحقوق الرومانية، فاستحقت تسمية "مرضعة الشرائع". هذا الإرث الحضاري المميَّز يلقي عليكم عبء إعادة لبنان ملتقى للثقافات، تتفاعل على أرضه، دون تعصب أو تحجر. أَوْلوا التعليم والبحث العلمي عنايتكم بحيث يتحول لبنان منارة للمعرفة وقبول الآخر. إنكم جديرون بحمل رسالة المحبة والتسامح والسلام إلى شعوب العالم ما تمسّكتم بشرعة حقوق الإنسان العالمية التي ساهمتم في صياغتها، وما تدعو إليه من تحريم التمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدين.

عند هذا الحدّ فوجئت رغد بأنّ الشبح قد اختفى، وإن ظلّت تسمع صوته كأنّه ينبعث من داخلها ويتابع وصفه لصورة لبنان المستقبل فيتحدَّث عن وجوب تحديث الإدارة وتطويرها، وتحصين القضاء وتأمين استقلاله، وعن حقوق المرأة، والحفاظ على الحريات العامة، ومحاربة الفقر، وتأمين العيش الكريم للجميع، وغير ذلك من الإصلاحات الكفيلة بتحقيق رسالة لبنان وجعله منارة للتقدم والحرية والعدل والسلام.

في الصّباح عندما استرجعت رغد ما رأته وسمعته في الحلم، ترسّخت قناعتها أنّ الشبح العبقريّ لم يكن إلّا من نسج الخيال، وأنّ حديثه عن مستقبل وطنها لم يكن إلّا صدى لما تتمناه

وتحلم به للبنان المستقبل. وراحت تصلّي للعليّ القدير أن يبدل الأحوال فهو وحده من يبدل ولا يتبدل.

حلى هاني حليس

ثانوية القلبين الأقدسين – الهيكلية

الصف الثالث الثانوي